

ديوان ابي العلاء المعري

خزانة المكتبة الظاهرية في دمشق كنز حافل بالعقائل الكريمة والأعلاق النفيسة
لو قبض الله له من يخرج للناس ما فيه من الطرف البديعة والتحف الرائعة لسد ثلما كثيرة
في الثقافة الاسلامية . وملاً زوايا خالية في الادب العربي
عثرت فيما عثرت عليه في هذه الخزانة على رسالة كتب على اول صفحة منها هذه
الكلمات [ديوان ابي العلاء المعري] تحت رقم ٥٥٤٢/٥٣

تحلية هذه الرسالة

هذه الرسالة مكتوبة بالخط النسخي الذي يشبه خطوط أهل القرن العاشر فما بعده
وقد نسجت عليها عناكب القدم ودب اليها داء البلى وشوه نضرتها تفشي المداد حول
الكلمات . وهي من ورق صفيق يبلغ عدد ورقاتها تسعاً وعدد صفحاتها ثمان عشرة .
طول كل ورقة ٢٢ سانتيمتراً وعرضها ١٧ وعرض الحاشية العليا [الهامش] ٤٥
والسفلى مثلها وعرض الحاشية من الجهة اليمنى ٧٥ ومن اليسرى ١٦٥ وعدد السطور
في كل صفحة ١٩ ما عدا الصفحة ١٣ فان سطورها ٢٠ والصفحة الأخيرة فان
سطورها ١٣ وطول كل سطر ٨ سانتيمتر والسطور كلها مقدره على مقياس واحد
واستقامة واحدة . وما بين كل قصيدتين مقدار سطر . وهو فارغ لم يكتب فيه شيء
إلا ما كان قبل القصائد التي على روي الرأى والزاي واللام والميم والهاء واللام الف
والباء . فقد كتب قبل كل قصيدة منها اسم الحرف الذي بنيت عليه مثل . الرأى .
اللام . الميم . . .

وليس في الرسالة تاريخ يعين زمن كتابتها ولا شيء غير المقدمة والآيات وانما
كتب على أول صفحة منها . ديوان ابي العلاء المعري . كما ذكرنا بخط مغاير لخط
الرسالة وكتب تحت هذه الكلمات على بعد ٦ سانتيمترات اول بيت من القصائد
ونصف البيت الثاني ولكنها منكوسان اي وجهها الى الأسفل وخطها من خط الرسالة

وتشتمل هذه الرسالة او هذا الديوان على تسع وعشرين قصيدة على عدد حروف الهجاء كل قصيدة منها عشرة ابيات . وتبتدى كل واحدة منها بالحرف الذي تنتهي به . وهي مرتبة على ترتيب حروف الهجاء تبتدى بحرف الهجزة ثم بالباء ثم بالتاء الى ان تنتهي بالياء المثناة وقد عبثت ايدي النساخ بأبيات هذا الديوان فجاءت مكتظة بالاغلاط والتحريف والتصنيف مما جعل اكثرها فاسد المبني مختل الوزن مضطرب المعنى فاقد الروعة والطلاوة وقلماسم بيت من علة أو خلت قصيدة من خلال ومن امثلة ذلك قوله :

أسود الشرى في الحرب تحمي نفوسها بنجدتها مالم تعن طبيا
الا ان قلب الصب في يد غيره حبه بقلبه بالطوع كيف يشاء
بكت رحمة للصب حين عدوه
خذي ادمعي يا ريح هدباً الى الحمى لتيسقهم منها الغروب النواضح
ويختال في حلل وأثواب سندس
شغت بمن يحكي العذال اذرنا
حياتي واخطتني ليدك حضور

الى غير ذلك من ضروب التقديم والتأخير والزيادة والنقص والتصنيف والتغيير والتبديل مما لا يستقيم معه وزن ولا يصح عليه معنى وفيه ما يشق على الفاتق رتقه ويتسع على الراقع خرقة

تحقيق نسبته الى ابي العلاء التنوخي

المسمون بأبي العلاء من أهل المعرفة كثيرون منهم . ابو العلاء بن عبد الله بن المحسن وابو العلاء ابن ابي الندى . وابو العلاء أحمد بن ابي اليسر . وابو العلاء المحسن بن الحسين بن جعفر وأبو العلاء سعد بن حماد .

وفي هؤلاء من كان معاصراً لأبي العلاء التنوخي وفيهم من تأخر عنه . ولكن المشهور في عالم العلم والادب والفلسفة هو ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي وهو المتبادر الى الازهار عند الذكر والمراد عند الاطلاق

وليس في هذا الديوان دليل قاطع على انه لواحد معين من هؤلاء ولكن فيه امارات لا تبلغ درجة اليقين تدل على انه للتوحي منها
١ - ما كتب على ظهر الديوان

٢ - انه قال في مقدمته . وبعد فقد قال الفقير الى الله الغني ابو العلاء المعري انه قد كان ببغداد وكان يتشوق الى حلب ونواحيها ونظم هذا الديوان . وقد ذكرنا ان المتبادر عند الاطلاق هو ابو العلاء التوحي لا غيره ولا نعلم احداً ممن كفي بهذه الكنية ذهب الى بغداد غيره

٣ - التزامه ان يكون اول حرف في القصيدة وآخر حرف منها واحداً و ابو العلاء هذا مولع بالتزام مالا يلزم في صناعة الشعر نزاع الى اظهار قدرته اللغوية في كل مظهر

٤ - ان ابيات الديوان طافحة بالجناس كقوله :

أموت اشتياًفاً ثم احيا لشقوتي كذاك حياة العاشقين شقاء
قتيلاً اذا ناديتهم أجابكم له شرق بالدمع ان ذكر الشرقا
والمطابقة كقوله :

بعيد على ان الديار قريبة فحتى متى بالبعد تمزج لي القربا
دوائر ذي الدنيا تدور بأهلها فتتقص حالات الفتى وتزيد
ومراعاة النظير كقوله

فيا أسفاً ما للمعاني كأنها سطور محاهها الدهر غير حروف
كأنني نضار ظنه الدهر بهرجاً والقاه في نار ليخلص بالسبك
والتليح الى الحوادث التاريخية كقوله :

بئس من السلوان حتى نكبتة فلو انني غيلان ما سليت مي
يهجن الهوى حتى يرين كيوسف وبذمن حسناً زئنه الحلي والوشي

وارسال المثل كقوله

براني هوى الظبي الغرير وقادني
ثم ارمي من يجنحها دون الفه
ظننت بأن الدهر يبقى مسالماً
والمبالغة كقوله :

جعلت امحي ما كتبت بعبرتي
وكدت لسقمي في كتابي أدرج
حسان الدمى تصبو الى حسن وجهه
وفيهما كثير من الصور التي يجعلها ابو العلاء مهدات للقوافي كقوله

يسير علي الخطب حين الفته
سألت وميض البرق حمل رسالتي
والبسته مستحسناً فهو لي زي
الى ذي دلال مطمع لي مؤيس
وفيهما كثير من الغزل العفيف كقوله :

زررنا على غير الفواحش قمصنا
زنت أعين منا وعفت ضمائر
ولم نستجز الا الذي هو اجوز
فبننا وأيدينا من اللمس تحجز
وفيهما كثير من شكوى الزمان والناس والتذمر من الحياة كقوله

كفي حزناً ان لا صديق وأنني
كرهت حياتي واستطبت منيني
فريد بلا عيش يسر ولا نسك
كبرت على شكوى الزمان وأهله
اذا نضحكت سني فعيني دماً تبكي
ودهر خوون لست عنه بمنفك

وفيهما جملة من الأبيات الجامعة بين قوة الاسر وطلاوة الديباجة وشرف المعنى كقوله :

ترأت لعيني في المنام فأطفأت
رييب مقاصير أبوه وأمه
بزورتها نار الهوى وهي شبت
عفا الله عن ذا الدهر ان رد وصلها
وان كان ابهى منها الشمس والبدر
لبست الضنا حتى تبدلت صورة
وشعب منا كل قلب مصدع
سوى صورتي والحب لا يتبدل
مواردكم اشهى الى الحائم الصدي
ولو أنها شبت بسم الأرقام

واكثر الغزل في ابيات هذا الديوان مغمور بالتكلف واكثر الأبيات لا يخلو
من تصنع وهذا وامثاله مما تقدم يسوغ أن يكون هذا الديوان من نظم

أبي العلاء التنوخي وكونه قاله في بغداد يؤيد ذلك ولا يضعفه فانه نظم في بغداد
قصيدته التي مطلعها

منك الصدود ومني بالصدود رضى من ذا علي بهذا في هواك قضى
بي منك مالوغدا بالشمس ماطلعت من الكأبة او بالبرق ما ومضا
اذا الفتى ذم عيشاً في شببته فما يقول اذا عصر الشباب مضى

وفي قصائد هذا الديوان ابيات كثيرة من سنخ هذا الشعر تشبهه في معناه وان
كانت ادنى منه في مبناه فلا يبعد ان يكون ابو العلاء سلى نفسه في غربته بتلك
الايات أولي بها طلب طالب والشاعر قد يتفاوت شعره في قوة الاسلوب وجمال
التأليف ونبالة المقصد ونل من جاء شعره كله مطبوعاً على غرار واحد واذا كانت
أبيات هذا الديوان ادنى من شعر أبي العلاء في غيره فلذلك اسباب حجة من أعظمها
أن ابا العلاء لم يكن عاشقاً صباً ولا غزلاً بطبيعته وان كل ما قاله في باب الغزل
متكلف مصنوع جار على غير سجيته ولذلك ترى بعض ابياته في هذا الديوان
اذا كانت في غير الغزل اشد أسراً واحكم تأليفاً وأعذب اسلوباً من ابياته في الغزل
ويجوز ان يكون قالها ارتجالاً ولم يعد النظر فيها فهي تشبه ابياته اللامية التي اجاب
بها القاضي ابا الطيب الطبري في بغداد عن ابياته التي أرسلها اليه فانها مع جودتها
أدنى من شعره الذي قاله في بغداد وبعد نزوحه عنها

هذا ما بدالي في هذا الديوان من هذا الوجه

واذا نظرنا اليه من وجه آخر استبعدنا ان يكون لأبي العلاء وهناك امارات

آخر تؤيد هذا النظر منها

١ - انه قال في مقدمة هذا الديوان - قال ابو العلاء المعري انه قد كان
ببغداد وكان يتشوق الى حلب ونواحيها ونظم هذا الديوان . . . وليست هذه المقدمة
من كلامه ولا في الأبيات شيء من التشوق الى حلب ونواحيها . الا اذا جربنا في
تأويل كلامه على طريقة الصوفية بأن نجعل المراد ممن يتغزل بها او به في هذا الديوان
حلب ونواحيها كما يراد بمثل ذلك في كلام الصوفية ذات الله تعالى وتقدس ولكن
هذا غير معروف في كلامه

٢ - لم نجد في فهرس كتبه التي ذكرها ابن العديم وياقوت اسماً لهذا الديوان ولا ما يدل عليه مع ان كلاً منهما ذكر له رسائل وكتباً عملها قبل رحلته الى بغداد وبعدها ونقل المؤرخون والرواة كثيراً من رسائله وتصائده التي نالها فيها ولم نر من ذكر تصريحاً او تليحاً شيئاً يتعلق بهذا الديوان

٣ - في أبيات هذا الديوان لحن في مواطن متعددة لا يعهد مثله لأبي العلاء كقوله : فما المبتلى والمستريح سواء

يرفع سواء وهذه لغة تميم ، اما الحجازيون فيوجبون نصيحاً على انها خبر ما وقوله : وقلبي الى نحو الأجابة مجبذ ، ولم ار فيما لدي من كتب اللغة من ذكر اجبذ بمعنى جبذ اي جذب . ويجوز ان تكون محرفة عن يجبذ وحيثئذ يستقيم اللفظ والمعنى وقوله : فهل انت للمستودعات حفوظ .

فاني لم ار من ذكر لفظ حفوظ بمعنى حفيظ وحافظ . ويجوز ان تكون محرفة عن حفيظ من حفظ المال او السر اذا رعاه ولا يكون في البيت الآتي بعده اخطاء لأن لفظ حفيظ فيه تكون بمعنى المراقب . على ان اوزان المبالغة مقيسة في كل فعل متعدد ثلاثي على ما ذكره العلامة ياسين في حاشيته على التصريح

ومثلها قوله : وهيهات حرب النائبات كظوظ فاني لم ار لفظ كظوظ ولعلها محرفة عن كظيظ تقول كظ الغيظ صدره اي ملاءه فهو كظيظ . والكظيظ المعتاظ اشد الغيظ . والازدحام . والكظاظ الممارسة الشديدة في الحرب او محرفة عن لظيظ واللظيظ الزوم والالاحاح واسم من الظ بالشيء اذا لازمه ولم يفارقه ويجوز ان يكون مبالغة من كظ على نحو ما ذكرنا

وقوله : يموت اسير الحب قبل انطلاقه وما يفقد المملوك من امره شيء وهلك فعل لازم لا يأتي منه مفعول الا في لغة تميم قال ابو عبيدة اخبرني رؤبة انه يقول هلكتي بمعنى اهلكتي قال وليست بلغتي وقال ابو عبيدة تميم تقول هلكه بمعنى اهلكه . ويحتمل ان تكون محرفة عن المملوك ولكن هذا الشطر لا يستقيم اعرايه ومعناه على كلا الوجهين فهو على كل حال لا يخلو من آهة او ماهة وليس من

شك في ان النسخ قد عبث بهذا البيت وأسبغ عليه حلة ضافية من الغموض والابهام
٤ - في بعض ابيات هذا الديوان استعارات سمجة وكتابات غثة لا يستسيغها
الذوق السليم ولا يتقبلها اسلوب البلغاء بقبول حسن كقوله :

رشا صام علواً فادعت بثرب الحشا وافطر سفلاً فادعت ردفه مصر

٥ - وفيه ما يشتمل على تأليف سخيف كقوله

ثلث بذكراها وطبت كشارب لها بالمتاني وحده والمتالث

وقوله :

جلاء همومي طيفكم بوضح الدجي والا فأنفاس الصبا تتأرج
٦ - وفيه من التشبيه ما لم يعرف مثله لأبي العلاء او لم يؤلف في عهده كقوله

ذوائبه مسك ثناياه لؤلؤ وخداه تبر والعذار زمرذ

وقوله :

شوبدن انس صاد قلبي بلحظه وطاووس حسن في فؤادي عششا
ولا أعلم احداً من المتقدمين ولا من المتأخرين شبه العذار بالزمرذ وانما يشبهونه
بالنمل او النبت . وكذلك لم ار من شبه المحبوب بالطاووس وانما يشبهون الثياب
والأثاث ونحوهما به قال ابو العلاء في لزوم ما لا يلزم

في حلل غير وكم اشبهت ثيابها حلة طاووس

وقال فيه

عن الطواويس ما يلبسن مسترق وهن بعد قماري الضحى الصبح
وجملة القول ان معظم ابيات هذا الديوان لا يعد من الشعر الردي بل من الشعر
المتوسط والجيد وفيها ما يدل على سعة اطلاع على اللغة وبراعة في تأليف المفردات
واحكام وضعها وقدرة على التصرف في فنون القول . ولو سلم من مسخ النسخ لرأينا
فيه ضرباً من الروعة والجمال . وسنتم انقول فيه في كلمة أخرى ان شاء الله تعالى

سليم الخدي